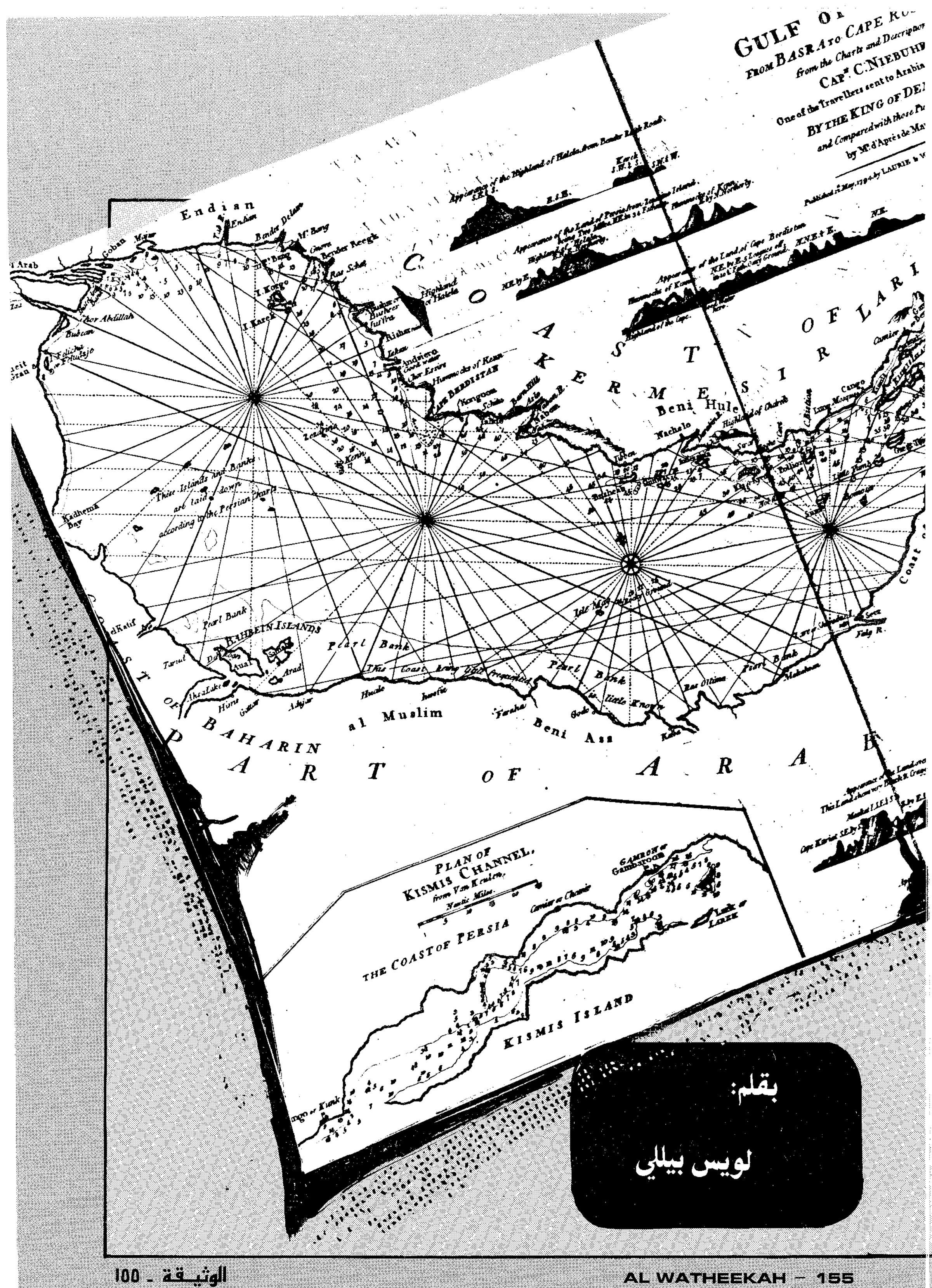


بقلم:
لويس بيللي

غادرت بوشهر في ديسمبر سنة ١٨٦٣م ونزلت في لنجة ومن ثم قدمت الى باسيدو ، وزرت كهوف الملح وينابيع النفط الموجودة في جزيرة قشم ، وبذلك اجتزت مضايق كلارنس وطوفت بحوقير لأرى تركيب الكبريت والمغارة الحمراء ، ومن ثم سرت الى بندر عباس ، ومكثت فيها انتظر قدوم باخرة البريد المتوجهة الى بوشهر ، وزرت في اثناء انتظاري جزيرة هرمز .

تضم لنجة قلعة بها مدينة حجرية غير مسورة وتمتد بيوتها على جانبي الشاطىء وتتدلى من فوقها اشجار النخيل . اما المرفأ فمكشوف وهو وان كان مستورا من الناحية الشمالية الغربية الا ان الرسو فيه خطر خلال الفترة التي تهب فيها الرياح الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية ، وقد بنى حاجز يكفي للرسو على نطاق ضيق . وتبعد لنجة ٢٥ ميلا عن باسيدو في الجهة الشمالية الغربية منها ، وهي المدينة الرئيسية في منطقة تقع ما بين البحر وبين الجبال الجرداء السامقة التي تتصل بمدينة لار ومن ثم تتصل بطريق شيراز . وتتصل هذه المقاطعة بمشيخة موغو في الطرف الشمالي الغربي وتمتد صوب الجنوب الشرقي حتى تكاد تصل بندر مولوم والمقاطعة التي ضمها سلطان مسقط الى بندر عباس . وعلى بعد اربعة اميال تقريبا من لنجة توجد اطلال القلعة البرتغالية كونغ . ولاتزال هناك اطلال بجانب الماء تدل على وجود مصنع ومتاريس مدفعية هلالية الشكل ، وهناك ايضا بقايا حاجز مائي ولعل فكرة الحاجز الموجود في لنجة قد اخذت عنه . اما منتجات المنطقة فهي التمر وشيء من القمح والشعير يكفي للاستهلاك المحلي . وشيخ لنجة عربي ويقال انه ينحدر من اسرة هاجرت الى الخليج حين كان العرب في اوج قوتهم في بغداد . وليست هناك جمارك تجبى عن الصادر والوارد الى لنجة ، ولعل ذلك ، مضافا اليه الموقع الجغرافي الذي حمى الميناء من التدخل الحكومي هو السبب في ازدهارها . ويبلغ سكان المدينة الآن وما يجاورها من الضواحي بين ٨ آلاف الى ١٠ آلاف نسمة ، ويبدو ان معظمهم من الافريقيين . وتتألف الطبقة الموسرة من العرب ، وقد جاء اليها بعض الايرانيين من اعالي البلاد للعمل فيها او لنقل البضائع الى الداخل ، وبها ما يقرب من عشرين هنديا يعملون كوكلاء لشركات في بومبى وكراتشي . ويبدو من العبارة السابقة ومن حديثي

مـع التجـار انفسهم ان الاهميـة التجارية القليلة لهذا المكان راجعة الى مـوقعه المنـاسب فهو محـطة وكـالة للبضـائع القـادمة من الهنـد والتي تسـوق على طول السـاحـل العـربي للخليج وفي الاراضي الايرانية المجاورة للنجة وفي نواحي لار . وتنزل البضائع من السفن ، وتبـاع فورا اذا كـانت الاسعار مجزية وتنقل الى الداخل على مسئولية مشتريها . ويعتبر تجار لنجة الطريق المارة بمضارب اليانت طريقا غير امينة لا تسمح لهم بالمتاجرة مع الداخـل . ولو لم تكن هنـاك ظروف طارئة لما استطاعت لنجة ان تنافس في تجـارتها مـع الداخـل بنـدر عبـاس وبوشهر بالرغم من موقعها الجغرافي ورداءة مرفأها ، وتشير احصائياتهـا الى ان معظم تجارتهـا مع المـوانىء العـربيـة ، يتم شحنهـا في مـراكب صغيرة تبعا للطلب والفرصة . وتدفع الموانىء العربية مقابل هذه البضائع اللآلىء وبعض الاسماك المقددة . وفي لنجة ثمانية قوارب او عشرين تشتغل في الغوص على اللؤلؤ وهناك ما يقرب من ١٥٠ مركبا من مختلف الاحجام يمتلكها أهل لجنـة ، وبالرغم من ان بنـاء المـراكب حـسن ورخـيص في الساحل الغربي للهند ، الا ان بنائي لنجة يفضلون استيراد الاخشاب من الهنـد ويبنون مـراكبهم (وهي احـد الانشاءات الرئيسية) على شواطئهم .

وعبرت من باسيـدو الى جزيـرة قشم لأزور كهـوف الملح وينـابيـع النفـط . وبعد ان تتـرك الطريق تلك الاكمة الصخريـة التي بنيت فوقهـا باسيدور تهبط عدة اقـدام في سهل تتناثر فيه اشجار النخيل وتمر باطلال قلعة برتغالية قديمة قائمة على صخرة منفـردة وتـشـرف عـلى مضـايـق كلارنس . وتصل بعد ان تسير سبعة أميال الى قرية الجورة ثم تـدور بين تلال منخفضة مسافة خمسة أميال في سهل الكونة التي تبعد ميلا أو ميلين عن الشـاطىء الجنـوبي . وعنـدمـا تخلف الكـونـة وراءك تسـير صـوب المشرق في واد متجها نحو سلسلة من التلال الحمراء الداكنة ـ وهذه تكون سلسلة الملح . والتكوين العام لهـذه الجزيرة ، كتكوين المنطقة الممتدة منها وساحل مكران الى كراتشي ، يتـألف من رمال صخرية متراكمة ومن الحصى فوق طبقة من الطين الخزفي الجيري * وتختفي هذه الطبقة فجأة وتظهـر طبقة الملح على الشاطىء ، ويبدو انها تمتـد الى داخل الجـزيـرة ، وتسـير محـاذية للشـاطىء مسافـة خمسـة كيلومترات وعلى بعد بضع مئات من الخـطوات منه ، ثم تتجـه فجأة الى

الارض الداخلية . ومظهر هذه السلسلة العام هو الحمرة القانية ، وتتناثر فيها احجار الاردواز . والتلال شديدة الانحدار ويتراوح علو قمتها ما بين ٣٠٠ و٦٠٠ قدم . ويبدو ان السلسلة كلها ملحية وتذكرني بهضبة الملح القريبة من نيسابور الواقعة على الطريق الذي يصل ما بين طهران ومشهد . وكانت المجموعتان من الكهوف الملحية اللتين زرتهما تقعان على طرفي السلسلة المقابلين للبحر . وكان الكهف القريب من كونه صغيرا نسبيا ، ويبدو انه لم يستغل ولكن احد الكهوف الواقعة في الطرف الاخر كبير ، فهو يشكل قوسا يتراوح ارتفاعه بين ٢٠٠ و٣٠٠ قدم وطوله يساوي ارتفاعه ، اما امتداده العرضي فيتراوح بين ٦٠ و٧٠ قدما . وسقف الكهف مخطط تخطيطا جميلا كالرخام ، بينما تتدلى منه قطع بلورية كثيرة ممتدة على شكل حبل لونها ابيض كالثلج .

وهناك كهف اخر اصغر من الكهف السابق ويقع على مقربة منه ، وهذا هو الكهف المستغل بصورة رئيسية . ويبعد ميلا عن الشاطىء - وهناك طريق حسن تسلكه الجمال والحمير في الوصول اليه . وتكوم قطع الحجارة الملحية التي تقطع من داخل الكهف عند مدخله ، وتنقلها الحمير والجمال الى الشاطىء حيث توضع في قوارب محلية صغيرة وتنقل الى مسقط ، ثم تصدر اخيرا الى كلكتا والشاطىء الافريقي الشرقي . اما مدة العمل فيقال انها تستمر ما يقرب من خمسة اشهر ، وتبدأ في اوائل الربيع حيث يعمل بين ١٠٠ و١٥٠ عاملا يوميا . ويقال ان سبب توقف العمل في قطع حجارة الملح في بقية السنة ان القوارب التي تنقل الملح لا تستطيع ان ترسو على الشواطىء ما لم يكن الطقس هادئا ، وان كنت اعتقد ان عامل الطلب هو الذي يتحكم في العمل . ويدفع كل قارب يحمل ملحا قرانين اي ما يقرب من روبية عن كل طن لشيخ قشم ويدفع كل صاحب جمل يستخدمه في نقل الملح ٥ قرانات في السنة لنفس السلطة . ويقال (ويؤكد ذلك مظهر المكان العام) ان العمل محفوف بالمخاطر اذ كثيرا ما تنهار صخور الملح من السقف ومن الجوانب .

وقد قيل ان الكثيرين من العمال قد قتلوا من جراء ذلك ، وقد لاحظنا بين الركام الكثير صخرة ملحية صافية يبلغ سمكها ١٢ قدما وطول جوانبها ١٦ قدما ، وقد سقطت اخيرا من وسط سقف الكهف .

ويبدو انهم لا يستغلون الالواح الصافية التي مر ذكرها ، بالرغم من انني رأيت بعض الاصناف منها مما يعتبر من أنقى الاملاح التي تستعمل على الموائد .

ولا يوجد أي ماء عذب بالقرب من هذه الكهوف ويشرب العمال من بئر مالحة او من خزانين صناعيين يجمعان ماء المطر ويبعدان ميلين عن الكهوف . وعندما اقمنا في هذا المكان كانت مياه الشرب تحضر لنا من آبار محفورة بالقرب من سلسلة كونة الملحية .

وعندما نترك السلسلة الملحية وراءنا ونتابع سيرنا على الشاطىء في الاتجاه الشرقي نجد ان تكوين التربة العام من حجارة رملية ويستأنف مرة اخرى . وتسير الوديان في موازاة الساحل ، اما الطبقات التي على جوانبها فترتفع ارتفاعا يكاد يكون عموديا ويتراوح بين ١٠٠ و٢٠٠ و٣٠٠ قدم وفوقها طبقات رقيقة من الحصي والرمل . ويبدو ان الجزيرة كانت مستوية ، ولكن ندرة المياه والتعرض الطويل للرياح وللطقس قد حفر في ارضها الوديان والاخاديد ، ومظهر هذا الجانب من الجزيرة قاحل ومجدب وهو بهذا يشبه الساحل الايراني عامة .

واذا سرنا في احد هذه الوديان ستة أميال وقبل ان نصل قرية ساليك في الداخل بثلاثة اميال نجد ينابيع النفط وقد ملأت زجاجتين من سائل الجدول ويبدو انه على درجة متوسطة من الاشتعال . وعلى كل حال فالينابيع قليلة ، واظن انها ذات اهمية تجارية قليلة .

وعندما رجعت الى باسيدو ، وركبت قاربا ومررت بمضايق كلارنس حيث سرت في قناة قشم الضيقة . ويصبح عرض المضيق بعد بضعة اميال مئة ياردة أو أكثر ثم يتعرج مسافة ٢١ ميلا تقريبا بين جزر منخفضة وشطآن يغطيها البابول وتوجد نبتة المنجروف تحت سطح مائه . ويظهر شق الى اليمين فجأة ويؤدي الى قرية لوفت الصغيرة . وتقع هذه القرية على طرف الشاطىء عند انحدار كبير ، وهناك عند الطرف الاخير من القرية قلعة مربعة يقوم في كل زاوية من زواياها برج دائري به اماكن للمدافع . ويبدو ان السكان الحاليين للمدينة في جهل مطبق من امر تاريخ هذه التحصينات ، ويحمل تركيبها وبناؤها على القول بأنها اوروبية .

وقد أقطع سلطان مسقط قرية لوفت كما اقطع بقية جزيرة قشم لاحد

الشيوخ مقابل ١٥٠٠ روبية يدفعها له سنويا . وقد يبلغ عدد سكان لوفت ٤٠٠ او ٥٠٠ نسمة ، ويبدو انهم يعتمدون اعتمادا كليا على تجارة الاخشاب ، تلك الاخشاب التي يجمعونها من الجزر المجاورة ويصدرونها من جديد الى كافة ارجاء الخليج ، هذه الارجاء التي تعتمد في محروقاتها من الخشب على شطآن مضايق كلارنس .

يؤخذ ماء الشرب من خزانات معقودة تتجمع فيها مياه الامطار ، كما هي الحال في باسيدو . وجميع هذه الخزانات التي على الشاطىء قد بنيت على طراز واحد ، فهي اما مستطيلة او مستديرة وقد حفرت في الارض عند نهاية المنحدرات . وهناك في قلعة لوفت عدة آبار حفرت في الاراضي الرملية الحجرية ، ويستقى منها الماء عندما ينضب ماء الخزانات .

وبعد ان تركت لوفت قطعت المضايق متوجها الى خومير لازور مناجم الكبريت ، تلك المناجم التي حفرت في تل يبعد عن تلك المدينة فرسخا الى الداخل . والعمل يجري في اعالي الوجه المقابل للبحر من التل ، ويسير في داخل الطبقات مكونا معارض مختلفة . وتكون المواد الخام عندما تستخرج مؤلفة من قطع صغيرة مكومة في اكوام مخروطية وتحرق هذه القطع ويسيل الكبريت الى اسفل الكومة حيث يتجمد تاركا اكواما من الفضلات الجيرية او الجبسية . وقد منح سلطان مسقط امتياز استخراج الكبريت لاحد الشيوخ مقابل ٤١٠٠ قران . ويقدم الشيخ ٢٤٠٠ قران كهدايا للسلطان الايرانية .. اما الكمية المستخرجة فتتراوح بين ٦٠ الفا و٩٠ الف كيس وزن الكيس ٩ ارطال . ويقال ان الكبريت من نوع ممتاز ، يباع عندما ينقل الى الشاطىء ، فكل ١٠٠٠ كيس من ذوات التسعة الارطال تباع بروبيتين . وقد حدثني الشيخ انه يؤجر استخراج الكبريت في عدة اقسام، وان ربحه يبلغ قرانا واحدا في كل كيس من اكياس دلهي الذي يبلغ وزنه ٢٨ رطلا . وجومير عبارة عن قرية وقلعة ، مشابهة في حجمها للوفت - وفي الحقيقة انه يمكن ان نصف جميع القرى الموجودة على طول الشاطىءانها مجموعة من الصناديق الحجرية المستطيلة والمنخفضة التي نحيط بقلعة قد تهدمت ، وحولها اكواخ مؤقتة مبنية من سعف النخيل . وقد رست على الشاطىء قوارب مختلفة الاحجام . وهناك على

هذا الشاطىء ، كما على جميع شطآن المضايق مجموعة من الاوتاد المثبتة في نقطة منخفضة من الماء وهي تتألف من سعف النخل ، وقد شدت الى بعضها البعض شدا محكما .

ويتألف طعام السكان من السمك والتمر وخبز الشعير . والسمك الشائع هنا هو نوع كبير الحجم من السمك البوري ، ويصاد سمك موسى وان كان غير مرغوب فيه كثيرا .

ويزداد عرض المضايق بعد خومير حتى يبلغ ٤ أميال . وتتجمع على الشاطىء الفارسي تركيبات ملحية يظهر انها استمرار لتلك التركيبات الموجودة في جزيرة قشم - وهي فوق خط الماء مباشرة وترتفع ٦٠٠ قدم تقريبا ، ثم تتجه الى الشرق وتسير مع خط المضايق مسافة ٦ او ٧ اميال مكونة سلسلة من الروابي يتراوح ارتفاعها ما بين ١٠٠ و٢٠٠ قدم .

وعبرت المضايق ووصلت الى جزيرة هرمز وزرت اطلال المرابع البرتغالية القديمة . ولاتزال القلعة ذات البناء القوى قائمة ولكنها تحتاج لترميم وعليها بضعة مدافع خربة تحمل تاريخ اوائل القرن الثامن عشر . ويحيط البحر بالقلعة من ثلاثة جوانب . اما الجانب الرابع الذي يقابل البر فقد احيط بخندق ملء بالماء وقد حفر في اضيق مكان بنيت فيه القلعة . ويبدو ان الطريق المائي الشرقي من القلعة كان في عهد البرتغاليين يكفي لأن تمر به قوارب ذات حمولة حسنة وترسو عند الميناء مباشرة قد تهدم هذا الممر الآن *

ويكون الطرف الثاني من الخندق ذروة المدينة التي تمتد على شكل مثلث غير منتظم حتى تصل الى سلسلة من الهضاب تكون قاعدة المثلث وحاجزا طبيعيا . وارتفاع المثلث العمودي الممتد من خندق القلعة الى هذه الهضاب يبلغ ميلا ونصف الميل ، بينما يوجد هناك برجان كل منهما يقع على طرف قاعدة المثلث عند الشاطىء مباشرة ، وهما يحددان المدينة والمسافة بينهما تبلغ ميلين ، ولايزال البرج الغربي يحمل اسم ارجازي ، أما الشرقي فأسمه مشجاتة . ونجد بعد الاخير ضواحي تتجه صوب الجنوب الشرقي وتمتد موازية للشاطىء وتتصل برصيف يبعد ثلاثة اميال او اربعة . ويقال ان هذا الرصيف وهذه الضاحية واسمها طرومبق - لايزالان موجودين ولم يكن عندي متسع من الوقت لزيارتهما .

ومن المستحيل ان نعرف ماذا كان عليه اتساع مدينة هرمز في الزمن السالف . وتؤكد الاخبار المتواترة انها

كانت تشمل المجال الذي سبق تحديده ، ولكننى أستطيع ان اقول ان الايرانيين كانوا يقطنون في الاصل في الاماكن التي لازالت تحمل الاسماء القديمة السابقة ، وعندما جاء العرب بعدهم اطلقوا اسم بندر على طرومبق ، ثم جاء البرتغاليون ففضلوا المكان الذي لاتزال قلعتهم قائمة فوقه ، لأن المكان يعطيها حماية طبيعية ، وهو اقرب مكان للمرفأ القديم على البر ، وهي بالقرب من بندر عباس الحالية ** وثالثا انها تهييء اقرب مكان لرسو المراكب الكبيرة وهي على كل حال تشكل ملجأ على جانبي القلعة .

وهناك الى الجهة المقابلة من قلعة هرمز مباشرة في البر ، وعلى بعد اربعة أميال تقريبا الى الشرق من بندر عباس الحالية ، توجد آثار تدل على وجود جون قديم وصغير وقد امتلأ هذا الجون بالطين ، ولاتزال بعض آثار البناء ماثلة فيه للعيان . ويقال ان البضائع التي كانت تنقل من هرمز القديمة واليها كانت تنقل من هذا المكان . وهناك آثارتدل على وجود خلجان اخرى صغيرة على طول الشاطيء وبصفة خاصة الجون الذي يقع الى القرب من بندر عباس ، وقد امتلأ بالطين منذ عهد ليس بالبعيد .

ولعل وجود هذا الجون هو الذي تسبب في وجود بندر عباس في هذا المكان ولو لم يكن الامر كذلك فمن الواضح ان وجود بندر عباس الى الغرب عدة اميال وراء صرور افضل من وجودها في هذا المكان اذ ان هناك قطعة من الارض وجزيرة قشم سيحميانها كثيرا من الرياح السائدة .

ويجب ان نقبل ما وصلنا من وصف الكتاب القدامى لعظمة هرمز بتحفظ فلقد كانت في سالف الزمن مدينة تجارية عظيمة ومن الطراز الاول ، اما الآن فليست سوى مدينة شرقية عادية . وليست هناك أي آثار تدل على الضخامة او على القوة . واهم البنايات الباقية هي خزانات الماء المعقودة .

ولقد كانت هذه الخزانات بطبيعة الحال كثيرة وذات اهمية كبيرة ، في بلد مأهول بالسكان ويعتمد اهله على مياه الامطار،وان عبارة جوستاموند * - وهي ان الماء كان يطاف به في الشوارع محمولا على الجمال ليشتريه المسافرون - لا تدل على ان المدينة كانت تتمتع بترف اضافي وان ما يعتبر شيئا مباحا للجميع في بقاع العالم الاخرى اذ هو ضروري للحياة ، كانت له قيمة شرائية في هذه الجزيرة

القاحلة . وانه ليصعب على ان اصدق ما يقال من ان الطرق العامة التي كانت تطؤها الجمال كان مفروشة بالسجاد وبالكتان ، فمثل تلك الترتيبات لا توافق عادات تلك الحيوانات ابدا . ولعل من الاصح ان يقال ان حوانيت هرمز القديمة كانت ، كغيرها من المدن الشرقية تظللها قطع من الخيام والسجاد لتصريف الاعمال .

وهناك رواية محلية تزعم ان جزيرة هرمز كانت تابعة للمدينة الفارسية القديمة ميناو ، الواقعة في الداخل على ضفاف نهر عذب الى الشرق من هرمز مباشرة ولاتزال ميناو تحمل اسمها القديم ، وهو مأخوذ من كلمتى (من) ومعناها ارض و(آوب) ومعناها ماء . والحقيقة هي كما قالها لي احد تجار مدينة بندر عباس حين ، حدثني قائلا ان الناس يستقرون لاول وهلة فوق الارض الخصبة وعلى جنبات الماء العذب ، وحيثما وجدت هذين العنصرين الاساسيين بجوار اطلال عليك ان تتأكد من اسبقيتها في التاريخ .

أما الطابع العام لجزيرة هرمز فيشبه الى حد بعيد التكوين الملحي والكبريتي في المنطقة المجاورة لخومير والتي مر وصفها .

وتركت هرمز وابحرت متوجها نحو بندر عباس التي تبعد عن هرمز ١٢ ميلا في الاتجاه الشمالي الغربي . وهي مدينة مسورة يتراوح عدد سكانها بين ٨٠٠٠ و٩٠٠٠ نسمة ولها ضواح تمتد على شاطىء البحر وتحدها سلسلة من الجبال السامقة والجرداء على ما يبدو وعلى بعد ١٥ ميلا من بندر عباس ، الا ان الشقوق الموجودة في وسط هذه السلسلة تنبت برتقالا ممتازا ** ويقال انها مملوءة بالاشجار . وهناك قبور كبيرة مبنية على طراز فخم وهي الى الشرق من المدينة الحاضرة ، وقد اصبحت هذه القبور اطلالا .

وتوجد في الجهة الغربية اطلال تدل على وجود مدينة سامقة واسعة ، ويوجد بين هذه الاطلال انقاض مصنع انجليزي ، ويبدو ان هذا المصنع قد هدم لكيلا يستعمله اي عدو كنقطة ارتكاز في هجومه . وهناك موقع ممتاز ومستور للمرفأ على بعد اربعة اميال صوب الغرب عند مدخل مضايق كلارنس ، ولعله كان مكان بندر صغير . اما بندر عباس الحالية فهي خالية من أي رصيف او تحسين صناعي وعمق المياه عندها قامتان او ثلاث وعلى مسافة ميلين ، ولذا فان على المراكب ان تلجأ الى جزيرتي قشم

وهرمز عندما تهب الرياح الجنوبية او الجنوبية الشرقية التي كثيرا ما تهب والتي تحـول الشاطىء الى شـاطىء تحت رحمة الريح والامواج العاتية .

هوامش

* انني اتكلم عن الطابع العام للمنطقة ، ويظهر جزء كبير منه في صخرة قمة مونورا بالقرب من كراتشي .

* وجدت خلجانا كثيرة على طول شاطىء بندر عباس مطمورة ، اما في الشمال فالامر على العكس من ذلك اذ نجد في شبه جزيرة بوشهر وعلى الساحل العربي ايضا اثارا تدل على ان البحر يجوف الأرض باستمرار . ونجد بالقرب من قلعة ريشهر في ذلك الجزء العاري من التربة والموجود على امتداد صخور الشاطىء قطعا خزفية تمتد منطقة وجودها الى مسافة كبيرة ، كما انها توجد على عمق ٥ ، ٦ ، ٧ أقدام . ولاتزال هناك بعض الكهوف التي توجد بها فجوات رملية موجودة فوق الصخور وترفع مياه البحر الى مستوى عال .

* * انها تبعد ٤ أميال الى الشرق من بندر عباس .

* انظر مقتطفات من جوستاموند ورالف فيلش ص ٣٠ من (مختارات الحكومة) عدد ٢٤ لسنة ١٩٥٦ .

** يقال ان احسن انواع البرتقال الموجودة في زنجبار تستورد من سلسلة الجبال هذه .